قصص : فؤاد حدّاد

رسوم : محيي الدين اللبّاد

مِنَ القَلْبِ لِلقَلْبِ

دار الفتى العربي



كِتَابٌ خَاص
يَصْدُر تَكرِيماً لِلشَّاعِر
فُؤاد حَدّاد
في ذِكرَى وَفَاتِهِ الرّابعَة

من القلب للقلب

الطبعة الأولى : ١٩٩٠

©١٩٩٠ : دار الفتى العربي

القاهرة : ٩ شارع مديرية التحرير ، جاردن سيتي
هاتف : ٣٥٥٠٥٦٤ ، تلكس : 93064 TEAM—UN
بيروت : ص . ب ٥٢٣٦ / ١٤ ، برقيا ، دفتنشر
هاتف : ٣١٢٤٢٠ ، تلكس : 230220 ARABI—LE

سلسلة الأُفُق الجديد

قصص : فؤاد حدّاد

رسوم : محيي الدين اللبّاد



مِنَ القَلْبِ لِلقَلْبِ

دار الفتى العربي

كلمة من الرسام

بدءاً من عام ١٩٦٨ ؛ قرأت قصص فؤاد حداد (١٩٢٧ ــ ١٩٨٥) التي نشرها للأطفال في مجلاتهم المصرية . وكان أغلب هذه القصص مُعَرَّباً عن اللغة الفرنسية التي أجادها الشاعر ، كما كان منها الكثير من القصص الشعبي الإفريقي . وقبلها ؛ وفي عام ١٩٦٤ ؛ كنا قد تعرفنا ــ من جديد ــ على أشعار فؤاد حداد بعد أن حُجبت عنا ــ قسراً ــ عدة سنوات . وكان بعضها في شكل أغاني الأطفال الشعبية المتداولة مثل : « طلعت أدِبّ / نزلت أدب / لقيت الدبّ / يقزقز لبّ » ، و« حكاية الشاطر حسن » . ومن خلال هذه الأشكال الجميلة ؛ كان الشاعر يحدِّثنا في الوطنية ، والسياسة ، وأمور المجتمع .

كان فؤاد حداد ــ وقتها ــ لايزال مشغولاً بالطفل القابع داخله ، يلاعب كل منهما الآخر ويحاوره ، وينتظر منه الاعتراف والقبول والصحبة . وهاهو فؤاد حداد ــ في السنوات الأخيرة من حياته ــ يقابل فؤاد حداد الصغير المشاغب الجميل ، ويتعرَّفه ، ويصالحه ، ويَقْبَله ، ويُقبِّله . ثم ها هما ينطلقان ــ معاً ــ في جلبة ونشاط واحتفال في غاية الظَّرْف والحلاوة . وها هو الشاعر يطلق كنز طفولته المخبوء ، ويبدع ملاحم شعرية وقصصاً للأطفال ؛ مستوحاة مما سمعه الحداد الصغير من تراث شعبي متنوع ، وهي تختلف عما عرفناه له من قبل . وفي إحدى قصص هذا الكتاب ؛ يسجل فؤاد حداد ــ مبتهجاً ــ اكتشافه لصاحبه الصغير ؛ متمنياً دوام الصحبة : « تسمح لي ــ إذن ــ أن أقول لك : إن فؤاد الحداد طفل الفؤاد ، شاب الفؤاد ، إلى الأبد ! » .

ويضم هذا الكتاب أربع قصص جميلة لم يسبق نشرها . لانعرف مصدرها كلها ؛ هل ألفها الحداد ، أم أنه استوحى أفكارها من مصادر أخرى ؛ مثل قصة « الصياد العجوز » المستوحاة من تراث الحكايات الشعبية العربية . لكن ليس هذا هو المهم ــ المهم هو أن الشاعر حكى قصصه باليسر الذي تكلم به في حياته اليومية ، وبخيال عامي غني خصيب ، وفي نفس الوقت بلغة فصيحة فاخرة . وقد حفز هذا



فؤاد حداد في السنة الأولى من عمره (١٩٢٨)


من القلب للقلب

من القلب للقلب

نحن أهل بلدةٍ صغيرةٍ على السَّاحل ؛ تسكنها أربع أو خمس عائلاتٍ متحابَّةٍ متعاونةٍ في السَّرَّاء والضَّرَّاء ؛ جُلُّ أبنائها ــ إن لم يكن كلُّهم ــ من الصَّيَّادين والسَّمَّاكين وممَّن يُصلحون السُّفن ، أو يغزلون الشِّباك ويفتلون الحبال ، أو يصنعون عقودًا من خرزٍ بديعٍ ولآلِئَ شتَّى ؛ منها الرَّخيص ومنها الثَّمين .

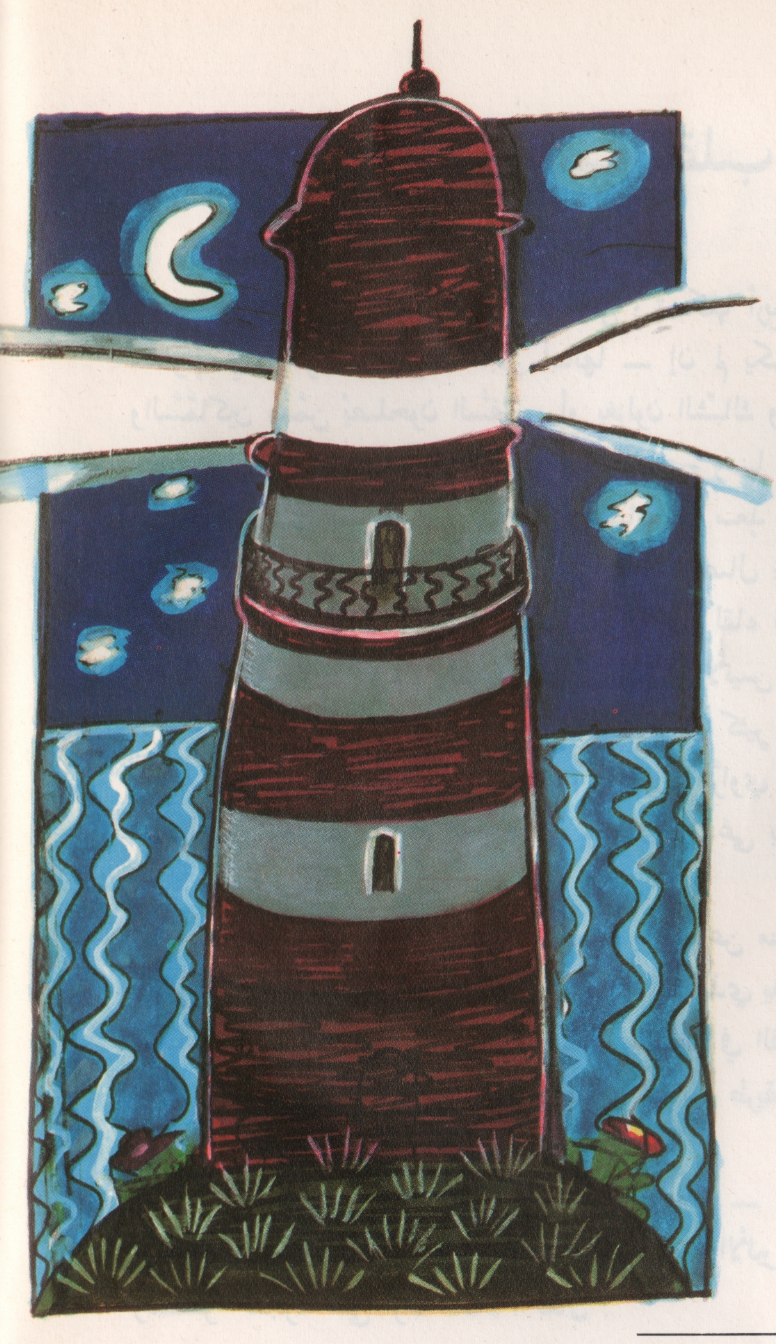
وكان في بلدتنا رجلٌ وزوجته يعيشان في سعدٍ وهناءٍ ؛ يتَّفقان في المروءة والبساطة والصِّدق والودِّ . فإذا اجتمعتْ هذه الخِصال ؛ كان أجمل تعبيرٍ عنها بسمةً تعلو الشِّفاه عند لقاء الأحبَّة ، وبسمةً أخرَى عند لقاء المخاطر والمشقَّات .

وكانا مثال التَّآلف والمزاج المعتدل الطَّيِّب الأنيس . يختلف الصِّغار والكبار ؛ هل هما أميل إلى الوقار أم إلى المرح . متشابهان في كثيرٍ من شؤون الحياة وفي الطِّباع والخُلق وأشياءَ أخرَى مثل الكلمات . يقول الرَّاوي : « كانت هي من عائلة المرجاوي ، وهو من عائلة البرجاوي ، ويُنادَى ويُدعَى باسم أبي حمادة فهي بالطَّبع كذلك أمُّ حمادة » .

وكان يعمل حارس فنارٍ في البحر ؛ يغيب عن منزله فتراتٍ تمتدُّ إلى شهورٍ ، ولكنَّ صورة الزَّوجةِ الوفيَّة ، وابنهما الوحيد حمادة الذي يدرج نحو الخامسة ؛ لا تبرح مُخيِّلته أبدًا . وكان عليه أن يواصل السَّهر باليقظة في الفنار ــ ليلَ نهارَ ــ حتى لا تنطفئَ شعلته أبدًا ، وتظلَّ تضيء للمراكب ؛ فتسلك طريقاً آمنًا ؛ تتجنَّب الصُّخور إلى أن تدركَ البرَّ سليمةً بإذن الله .

وكانت هي تبعث إليه ــ كلَّ يوم أربعاء ــ بزاده وزُوَّاده من الطَّعام ، والسُّكَّر ، وحاجاتٍ قليلةٍ ، ونبْتِ الزَّنجبيلِ مشروبه الأثير ؛ ليدفأ في الشِّتاء القارس ، ولتصفو حنجرته متى أراد الغناء ؛ فقال :

هذا نور الفنار



وردُ بردٌ ونار
في لون الجُلَّنار(١)
يشدو مثل الكنار
في اللَّيل والنَّهار
والشَّمس والقمر
يا عرفانَ الجميل
هذا نبتٌ نبيل
من طهر الزَّنجبيل
يسقي من سلسبيل
يهدي إلى السَّبيل
يُؤتي خيرَ الثَّمر
هل يشكر البنون
هذا القلبَ الحنون
يراه العاملــون
في البحر لا يَتُون(٢)
سفراً على سَفَرْ
هذا شوقٌ صبَر
وحنينٌ قد غمر
الشَّمس والقمر
واللَّيل والنَّهار
يشدو مثل الكنار
في لون الجُلَّنار

---

(١) الجُلَّنار : زهرة الرُّمَّان (٢) يتون : يخادع

وردٌ بردٌ ونـار
هذا نور ؛ الفنار

وكنّا نرى أبا حمادة في بلدتنا بين الحين والحين ؛ بل كنّا نراه إذا أردنا الدِّقَّة كلّ ثلاثة أشهر ؛ فنستبشر عندما يطالعنا وجهه البشوش ، ونحيِّيه مشتاقين ، ونتمسَّك بدعوته إلى احتساء كوبٍ من الشّاي أو فنجانٍ من القهوة أو الزّنجبيل إذا أحبَّ أن يستزيد منه ، فيقبل دعوتنا مشكوراً ، وتغمرنا الفرحة جميعاً ، ونظلُّ نقول :

« مرحبًا ـــ مرحباً ـــ أهلًا وسهلًا ـــ كيف الحال ؟ ».

وقديمًا قالوا في الأمثال : « يُعرَف الصَّاحب من صدق المراحب » .

وذات مرَّةٍ ؛ ارتفعت أمواج البحر عاليةً ، وهبّت العاصفة ، ومرَّ يوم الأربعاء ، ولم يصِلْ إلى أبي حمادة شيء ممَّا تعوَّده في مثل هذا الموعد من كلِّ أسبوعٍ . وظلّت الأمواج تلطم الفنار ، وتلطم الشّاطئ الذي يبعد عنه ميلاً ؛ والذي تقع عنده بلدتنا ؛ تنظر إلى البحر وتأمل عودة الغائبين .

وراح يقول في مثل المناجاة : « كم أوحشَتْني أمُّ حمادة ، وأوحشني حمادة ، وأوحشتني الحلاوة الطَّحينيَّة . لقد فرغ المخزون منها عندي ؛ وأنا لا أستطيب الحياة بدونها ؛ بل أنا لا أستطيع الحياة بدونها ! ».

وضحك أبو حمادة لهذه المبالغة في القول والادِّعاء ، وردَّدت جدران الفنار

ضحكته بصوتٍ غريبٍ ؛ كأنَّها تريد أن تذكِّره بعزلته ، فعاد وقطَّب بين حاجبَيْه . ونظر فجأةً فرأى في البحر من قِبَل البلدة مركبًا يصارع الأمواج ؛ قويًّا تحكمه يدٌ مدرَّبةٌ . وأمعن النَّظر ؛ فدقَّ قلبه في صدره بهجةً وسرورًا ، ودقَّ إشفاقًا وخوفًا ! .. إن الطَّيف المقبل نحوه فوق المركب هو طيف أمِّ حمادة . هي أمُّ حمادة نور العين ؛ جاءت بزاده وزُوَّاده من الطَّعام ، ومن ثياب الصُّوف ...

.. واقتربت وتبادلا السَّلام . وخرج إلى شرفة الفنار ؛ وهو يدعو لها متمتمًا : « أبقاكِ الله لابنك وزوجك ياروح الحياة » .

بادرته قائلة : « لا أستطيع أن أرسو في هذا الجوِّ ! » ..

قال : « تسألين عن الجوِّ ؟! إنه باردٌ بعض الشَّيء ، وعاصفٌ بعض الشَّيء ، ومحتمَلٌ بعض الشَّيء ! » .

قالت : « لا أستطيع أن أسمعك » .

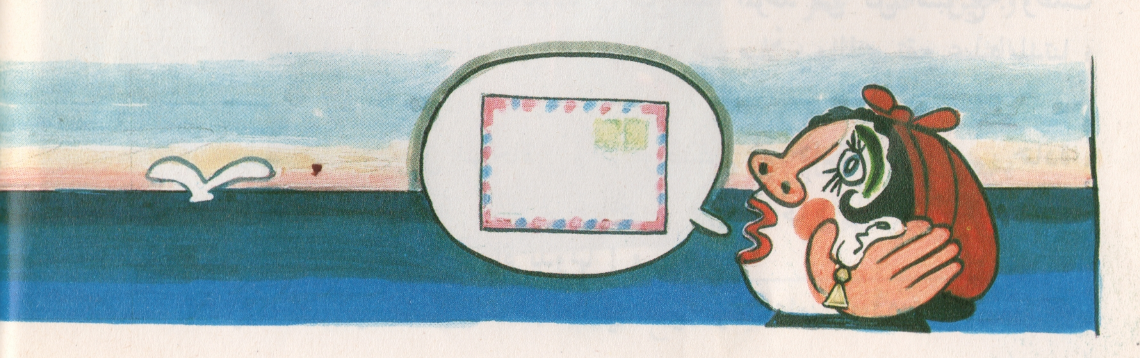
قال : « تسألين مَنْ معك ؟ لا يوجد معي أحدٌ للأسف ؛ فإن الفأر الذي كان يؤنسني ، ويقرض في قرص الجبن وحبَّات الزَّيتون قد غرق أمس » .

قالت : « المهمُّ يا أبا حمادة أن تلقي الحبل » .

قال : « الطَّبل ! فهمت ! تقولين إن الأمواج تدوِّي وتدقُّ وترغي وتزبد مثل الطَّبل . هذا صحيحٌ ، وأنا الآن لا أكاد أسمعك ! » .

قالت : « أنزِل السَّلَّة بالحبل لكي أضع الزَّاد فيها » .

وأدرك ما قالت بأذنه ، أو فهم إشارتها بعينه ؛ فدلَّى الحبل بالسَّلَّة ؛ وهو يقول









لها : « لا تنسَي أن تضعي الحلاوة » .

قالت : « حمادة ؟ أنت تسأل عن حمادة يا أبا حمادة ؟! إن حمادة بخير ؛ وهو يسلِّم عليك ويقبِّل يديك ، وكان يريد أن يأتي معي ، ولكنَّني زجرتُه وأبقيتُه في المنزل ؛ بل أخذتُه إلى أمِّ سعدون ليلعب مع أطفالها في انتظار رجوعي » .

وكانت توالي حديثها الذي لا يُسمَع منه إلا أقلُّ القليل ، وتوالي وضع الأطعمة في السَّلَّة .

واعترف فيما بينه وبين نفسه بخطئه قبل خطئها . إن أوَّل سؤالٍ يلقيه عليها ؛ كان يجب أن يكون عن حمادة لا عن الحلاوة . أي نعم عن حمادة لا عن الحلاوة . ومع ذلك ؛ فقد فتَّش عن السَّلَّة بعد أن رفعها ؛ فلم يجد فيها ما كان يتلهَّف عليه .. لم يجد الحلاوة . وكأنَّه ابتسم ، وكأنَّه عاد إلى الجدِّ ؛ عندما تذكَّر زوجته المسكينة الجالسة في المركب أسفل الفنار في الزَّمهرير والعاصفة (ما أوفاها وأطيبها !) .

قال وهو يُنزل السَّلَّة مرَّةً أخرَى : « أريد حلاوةً طحينيَّةً ، هل أتيتِ بالحلاوةِ الطَّحينيَّة ؟ » .

قالت : « لحمٌ في الصِّينيَّة ! لحمٌ في الصِّينيَّة ! لقد أتيتُ لك بصينيَّةٍ على قدر حالنا ؛ صينيَّةٌ صغيرةٌ صنعتُها بيدي كما تحبُّ بالبصل والفلفل والخلِّ والغار والكمُّون ، ولففتُها في ورقةٍ لتحفظ حرارتها وطعمها . ستأكل بعدها أصابعك » .

ورفع حارس الفنار السَّلَّة ؛ وهو راضٍ بالطَّبع عن هذه التُّحفة البهيَّة من المأكولات الشَّهيَّة ، ولكنَّه مازال متمسِّكًا بالحلاوة التي ظلَّ يحلم بها ليلتَيْن ويتخيَّلها ثلاثة أيَّامٍ ، قال : « ياأمَّ حمادة اسمعي وعي ، اجعلي كلامي يدخل أذنيك صحيحًا كما هو ؛ فلا يتبدَّل عندما يصل إليهما ! إنني أريد حلاوةً طحينيَّةً . إن الحلاوة الطَّحينيَّة هي كلُّ ما أريد ! » .

قالت : « بريد ؟ أي نعم البريد ! لقد جاءت رسالاتٌ قليلةٌ إلينا بالبريد ، وقد حفظتها لك عندنا ، ثم قلت اليوم عندما أزمعت المجيء إليك : خذي معك الرَّسائل إلى أبي حمادة ليتسلَّى بقراءتها » .

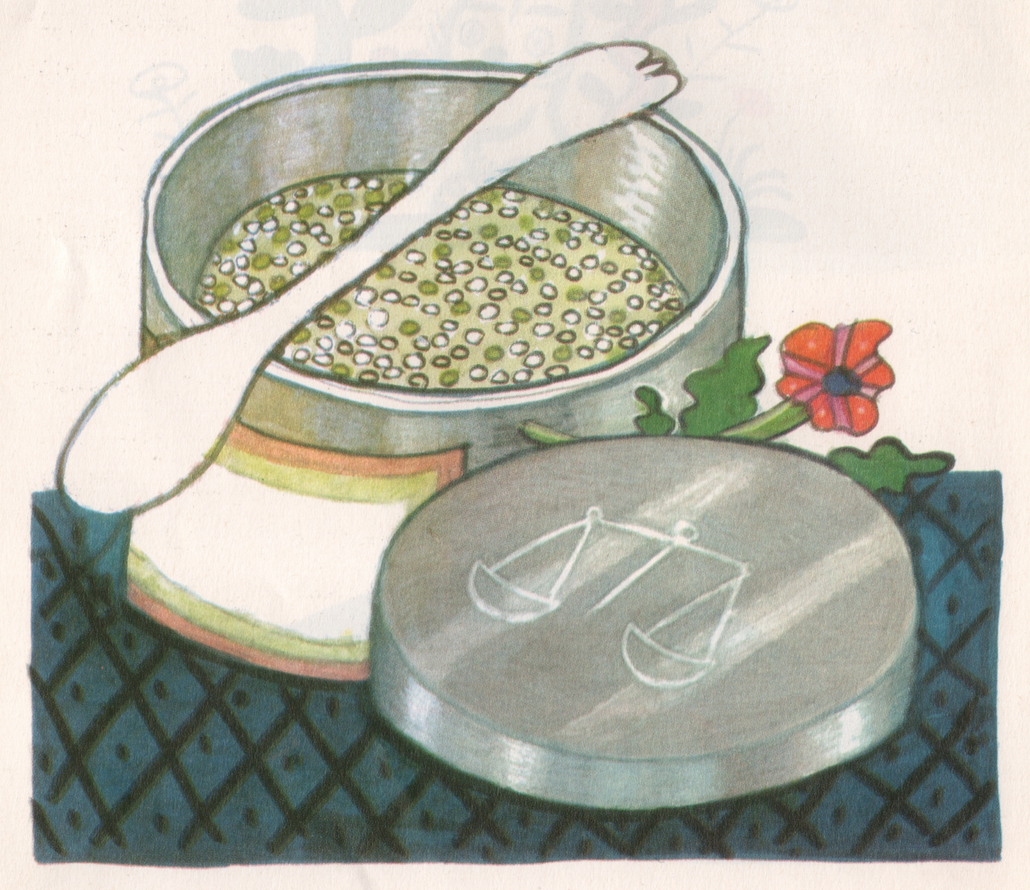
ورفع أبو حمادة السَّلَّة واستلم خطاباته . ويئس من أن تفهم أمُّ حمادة بغيته

فسكت .. وسمعها تنادي وتقول : « أنزِل السَّلَّة إن عندي مفاجأةً ستسرُّك جدًّا جدًّا » .

وأنزل السَّلَّة بالحبل ، ورآها وهي تضع فيها شيئًا يشبه الصُّندوق الأسطوانيَّ . أيكون هذا هوما طلبه ؟! .. لا تتسرَّع ياأبا حمادة حتى لا تُفجَع في أمنياتك وآمالك .

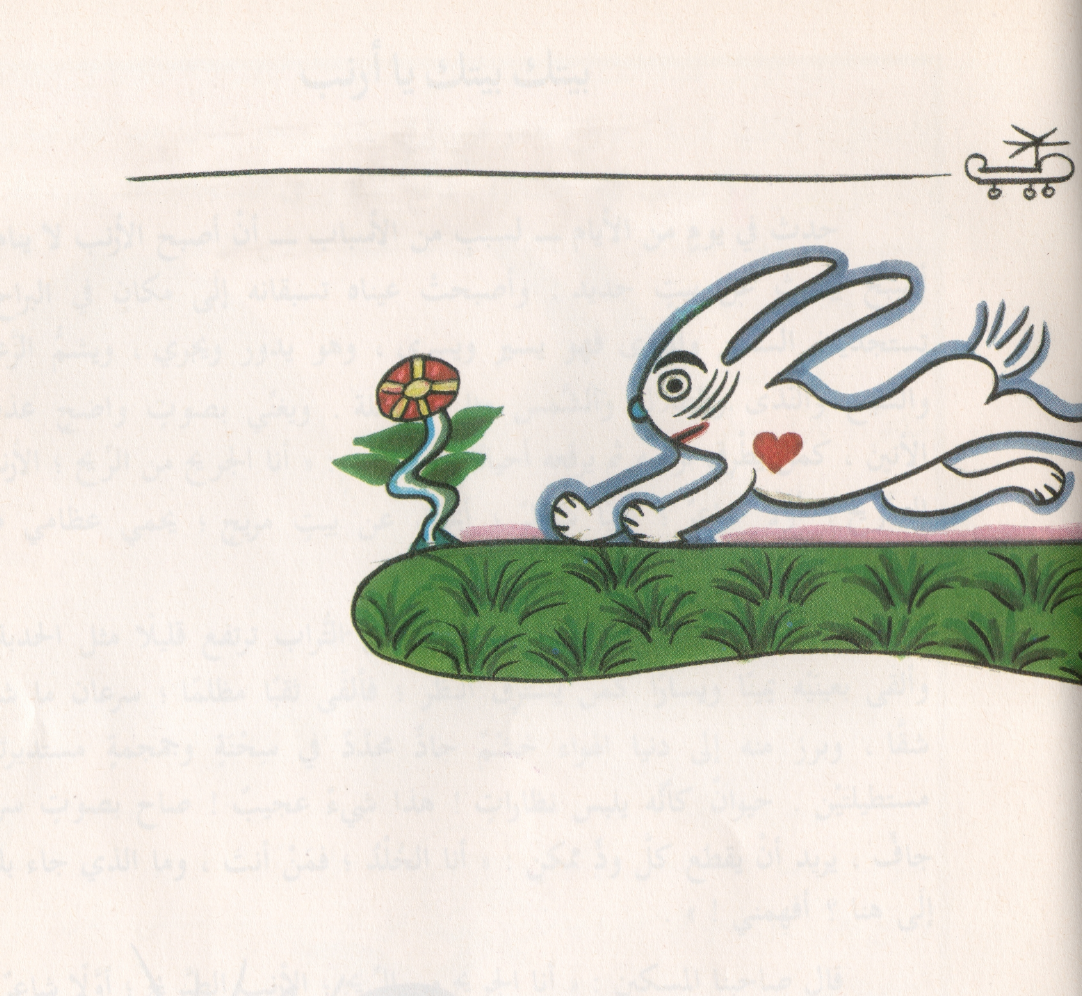
ورفع السَّلَّة ، وكانت هي ــ بالفعل ــ علبة الحلاوة الطَّحينيَّة ؛ فكاد يقبِّلها . وصاح من فوق الأمواج ؛ مخاطبًا زوجته العزيزة :

« شكرًا ياأمَّ حمادة ! ألف شكرٍ وزيادة ! لا أبطل الله لأهل الخير عادةً ! » .






بيك بيك يا أرنب





بيتك بيتك يا أرنب

حدث في يومٍ من الأيام ــ لسببٍ من الأسباب ــ أنْ أصبح الأرنب لا ينام ، أصبح يبحث عن بيتٍ جديد . وأصبحتْ عيناه تسبقانه إلَى مكانٍ في البراح ؛ تستجديان السَّكن والمأوَى فهو يسير ويسري ، وهو يدور ويجري ، ويشمُّ الزَّعتر والشِّيح والنَّدى والظِّلال والشَّمس مثل القَرَنْفُلَة . ويغنِّي بصوتٍ واضحٍ عذب الأنين ، كمَنْ يُطرِق برأسه ثم يرفعه أحيانًا ، ويخفضه : « أنا الجريح من الرِّيح ؛ الأرنب الصَّريح ؛ أوَّلًا شاعرٌ ؛ ثانيًا شاطرٌ ؛ أبحث عن بيتٍ مريحٍ ؛ يحمي عظامي من المخاطر » .

وتوقَّف عند شجرةٍ أبصر لديها كومةً من التُّراب ترتفع قليلًا مثل الحدبة ، وألقى بعينَيْه يمينًا ويسارًا كمَنْ يسترِقُ النَّظر ؛ فألفى ثقبًا مظلمًا ؛ سرعان ما شقَّه شقًّا ، وبرز منه إلى دنيا الهواء خَشْمٌ حادٌّ محدَّدٌ في سِحْنَةٍ وجمجمةٍ مستديرتَيْن مستطيلتَيْن . حيوانٌ كأنَّه يلبس نظاراتٍ ! هذا شيءٌ عجيبٌ ! صاح بصوتٍ سريعٍ جافٍّ ، يريد أنْ يقطع كلَّ ودٍّ ممكنٍ : « أنا الخُلْدُ ؛ فمَنْ أنتَ ، وما الذي جاء بكَ إلَى هنا ؟ أفهِمني ! » .

قال صاحبنا المسكين : « أنا الجريح من الرِّيح ؛ الأرنب الصَّريح ؛ أوَّلًا شاعرٌ ؛ ثانيًا شاطرٌ ؛ أبحث عن بيتٍ مريحٍ ؛ يحمي عظامي من المخاطر » .

وجاء الرَّدُّ سجعًا وشعرًا ثقيلًا ملبَّدًا مثل السَّحاب الأسود : « أنا الخُلْدُ كما قلتُ ، وأمَّا أنت فأقول فيكَ ، وليت قولي ــ إذن ــ يكفيكَ : آه ما أغرب شكلكَ ، آه ما أسهل أكلكَ ، ليس هذا سكنًا لكَ ، وإنَّما هو وكري من شجرتي ؛ خير الأوكار بالقرب من خير الأشجار ؛ فاغرُبْ عن وجهي يا مكَّار ! » .



ابتلع الأرنب هذه الشَّتيمة الخفيفة على مضَضٍ ، وابتعد عن المكان في خطوات لا تتثاقل ، ولكنَّها كئيبةٌ . ثم راح يعدو فيهبط في الأرض ويعلو كدأبه منذ كان صغيراً . ولمح على الرَّمل ظِلًّا يتواثب فوق الشَّجرة ، فرفع رأسه ورأى السِّنجاب عند وكره الملدَّن بالغصون الرَّطبة والطَّحالب . وتلاقَتْ عينان بعينَيْن . قال الأعلَى : « مَنْ تكون ، وماذا يمكن أن تريد ؟ » .

قال صاحبنا من أسفل : « أنا الجريح من الرِّيح ؛ الأرنب الصَّريح ؛ أوَّلًا شاعرٌ ؛ ثانيًا شاطرٌ ؛ أبحث عن بيتٍ مريحٍ ؛ يحمي عظامي من المخاطر » .

قال الآخر وسِنَّاه الضَّاحكتان تمثِّلان الغضب الوقور أحسن تمثيلٍ : « وَيْلكَ وَيْلي ! انظُرْ إليَّ أنا السِّنجاب : ذيلي ذيلي ! ويُخال أحيانًا ظلي ! وهو جزءٌ من بعضي ويُخالُ أحيانًا كُلِّي ! فلا تَقُلْ لي يا أخي ، لا تَقُلْ لي ؛ فأنا لا أسمع وأنا لا أسمح ؛ فإن بيتي هو بيت السِّنجاب ، ولن يسكنه سوَى السِّنجاب ، ثم مَنْ أُنجِبُه من السَّناجيب المُسَنْجَبة ! » .

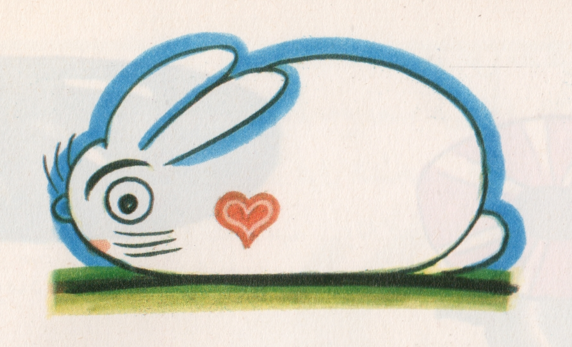
ولمْ يضحك الأرنب ولمْ يبكِ . وإذا به ينحدر من جرفٍ ، فيستوقفه سماع صوتٍ غريبٍ كأنه شخيرٌ مزكومٌ ، أو حشرجة رجلٍ سكران أو في النزع الأخير . ووقع نظره على قنفذٍ في حفرة بيته ؛ لا يدري على أيِّ جنبٍ قد استلقى . قال : « مَنْ أنت ؛ مَنْ أنت ؛ يا أيها المُصوِّب عينيكَ الطَّمَّاعتَيْن نحوي ؟! » .

قال الجريح : « أنا الجريح من الرِّيح ؛ الأرنب الصَّريح ؛ أوَّلًا شاعرٌ ؛ ثانيًا شاطرٌ ؛ أبحث عن بيتٍ مريحٍ ؛ يحمي عظامي من المخاطر ! » .

عندئذٍ اتَّضح أن القنفذ لا يقلُّ شاعريَّةً عن صاحبنا الأرنب ؛ فقد راح ينشد بصوتٍ مطَّردٍ ؛ لا أثر فيه للزُّكام أو السُّكر أو الإشراف على الهلاك . قال القنفذ للأرنب شعرًا ؛ والهواء الطَّلق على سفح الجبل يردِّد نبرات صوته :







« جاء الأرنب يبغي سكنًا
وتَمَسْكَنَ لي فأجبتُ : أنا
القنفذ ذو الشَّوك القافِز
والقنفذ ذو السَّهم النَّافذ
بيتي داري تحت جداري
بيت قنافذ دار قنافذ
لا يسكنها غير قنافذ ! »

وبرغم ما هو فيه من المآسي ؛ حدَّث الأرنب نفسه قائلًا : « شمَّ الهواء فأسْكَرَه ، فأطلق قافيةً مُنكَرَة : القنفذ ذو .. القنفذ ذو .. ».

وصادف الأرنب ترابًا تكدَّس فوق الأرض في كومةٍ كبيرةٍ ؛ لها ثقبٌ عريضٌ ؛ صاحبها حيوانٌ فيه مشابه من الكلب ومن القطِّ ، وفيه ملامح من الشَّراسة والألفة ؛ أغبر اللَّون ؛ أسود القوائم ؛ أبيض الوجه . لم يدْرِ الأرنب هل كان صوته شيئًا يُحتمَل أو يُطاق ، أو ينوء به صبر الجبال حين سأله : « من أنت يا أنت ؟ » .

قال الأرنب على المنوال : « أنا مَنْ أنا ! » .

وحدجه(١) الآخر بنظرةٍ لا تُوصَف بالظرف ؛ فاستدرك الأرنب مهرولًا يخاف أن يتعلثم(٢) : « أنا الجريح من الرِّيح ؛ الأرنب الصَّريح ؛ أوَّلًا شاعرٌ ؛ ثانيًا شاطرٌ ؛ أبحث عن بيتٍ مريحٍ ؛ يحمي عظامي من المخاطر » .

زحف الغُرَيْرُ (هذا اسمه) على الأرض زحفًا ودبَّ دبيبًا ؛ وهو يقول : « أنا أُدعَى الغُرَيْرُ ، رأسي غريرٌ ، جُحْري جُحْر الغُرَيْر ، يسكنه الغُرَيْرُ ، فقط فقط لا غير ! » .

داعب الأرنب نفسه ؛ فيما بينه وبين نفسه ، وضاحكها قائلًا : « أنا أعلم أن هذا المغرور يُدعَى الغُرَيْرَ ويُدْعَى الغُرْغُور . ولكنني الآن مُتعَبٌ مُجهَدٌ مُرهَقٌ مُنْهَكٌ ؛ فما العمل ؟ » .

رأى الثَّعلب عند وِجاره(٣) فقال له : « أنا الجريح من الرِّيح ؛ الأرنب

---

(١) حدَجه : نظر إليه بارتياب واستنكار (٢) تلعثم : ارتبك واحتار

(٣) الوِجار : بيت الثعلب ، ويمكن أن يطلق أيضاً على بيت الضبع والذئب

الصَّريح ؛ أوَّلًا شاعرٌ ؛ ثانياً شاطرٌ ؛ أبحث عن بيتٍ مريحٍ ؛ يحمي عظامي من المخاطر » .

قال الثَّعلب ، وكأنه من أساتذة الجغرافيا أو التَّاريخ ، أو الرَّسم بألوان الشَّمع ، أو حفر الكلمات في السمع : « ما أعجبكَ ! ما أغربكَ ! ما أرنبكَ ! هذا الوجار وجاري ! وهذه الدَّار داري ! أبيت فيها نهاري ؟ واللَّيل آكل أمثالكَ ؛ إذا تبالَهَ أو تهالَكَ ؛ فخذ بالَكَ ، واذهب هذه المرَّة في سلامٍ » .



ومضَى الأرنب ، وظلَّ ماضياً على حالٍ واحدةٍ من التَّعاسة والحظِّ العثير ، ولم يَدْرِ ولم يشعر هل طالَتْ به هذه الحال أم قصرت ؛ حين قال فجأةً : « أهذه مفاجأةٌ ؟ أم هذا ماء حياتي قد عاد إلى مجراه ؟ » .

كان أمام بيت أرنبٍ مِثله ؛ قد حفر الأرض وسوَّاها بقدمَيْه القصيرتَيْن ، ووقف عند البناء باسمًا ؛ وأذناه ترتعشان قليلًا .

قال صاحبنا لصاحبه : « أنا الجريح من الرِّيح ؛ الأرنب الصَّريح ؛ أوَّلًا شاعرٌ ؛ ثانياً شاطرٌ ؛ أبحث عن بيتٍ مريحٍ ؛ يحمي عظامي من المخاطر » .

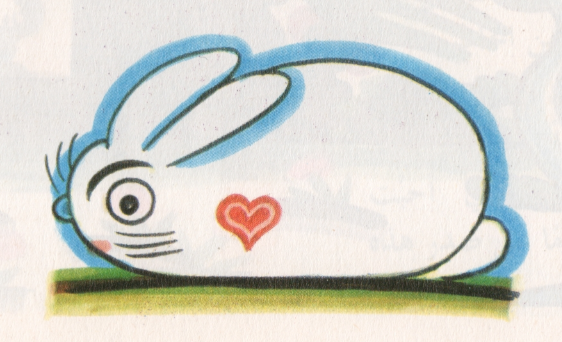
وردَّ البسَّام الأنيس الطَّيِّب الحلو الودود ؛ مرتجلًا ومرتجزًا بهذا الكلام اليانع المنعش الذي أحبَّت الشَّمس أن أعلِّقه وسامًا على صدر هذه الصفحة :



« أهلًا وسهلًا مرحباً ؛ أهلًا وسهلًا مرحبا
يا أرنب الورد الذي يدعو أخاه الأرنبا
تعال عندي نقتسمْ هديَّةً ومكسبا
كما تشاء مأكلًا ؛ كما تريد مشربا
إذا رغبت أيَّ شيءٍ ؛ ستراني الأرغبا
إذا استطبتَ أنتَ طيبي ؛ أستطيب الأطيبا
لحمي وعظمي ودمي ورحمي قد أوجبا
قلبي إليكَ قد صبا ؛ قلبي إذا تذبذبا
فبين أن تكون لي أخاً أو ابنًا أو أبا
فلستَ عنّي بالغريب لستَ عنّي أجْنَبا
يا أرنب الورد الذي يدعو أخاه الأرنبا
أهلًا وسهلًا مرحباً ؛ أهلًا وسهلًا مرحبا ».

وكان هذا أجمل وأسعد وأحقَّ ما يمكن أن يحدث لأرنبٍ جريح يبكي من الرِّيح .

وجد السَّكن والمأوَى ؛ فهو مسرور ، ووجد الصَّديق ؛ فهو هانئٌ . وهما الآن في مرجٍ فسيحٍ يملآن الزُّهور نشوةً وفرحًا وابتهاجًا بهذه القصَّة ؛ فنحن الكلّ نقرأها معًا .




أسطورة
العجوزين

أسطورة العجوزين

كان مرشدنا السِّياحيُّ في هذه الرِّحلة يُدعَى سعد الغريب . وكان شابًّا ذكيًّا وظريفًا ؛ لا يملُّ الإنسان من الاستماع إلى أحاديثه ؛ وهو يروي لنا تاريخ وأساطير الأماكن التي نمرُّ بها تباعًا ونتوقَّف عند بعضها ؛ فنطيل الوقوف كأننا نستخلص عبرة الماضي ، ونتأمَّل الحاضر والمستقبل في كلِّ نسمةٍ نستنشقها ونظرةٍ نلقيها .

وجاءنا سعد الغريب ذات صباحٍ ، وقال لنا : « اليوم سنزور قرية العجوزَيْن » .. وكانت هناك بسمةٌ خفيفةٌ تلوح على شفتَيْه ؛ فابتسمنا مثله ، ولم ندهش كثيراً أو قليلًا لاسم القرية ؛ فقد تعوَّدنا ـــ في رحلتنا ـــ مثل هذه الأسماء ، وعرفنا بالخبرة أن وراءها دائمًا قصَّةً وسببًا لا يخلو من عجبٍ أو من طرافةٍ ، وقد ينطوي على فائدةٍ وحكمةٍ .

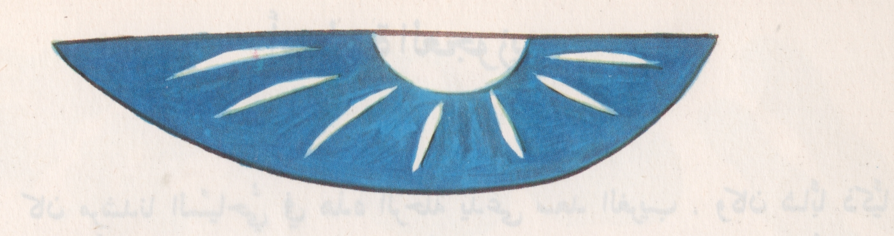
ودخلنا القرية ، فالتفَّ بنا النُّور والهواء والخضرة من كلِّ جانبٍ ، وغمرتنا نشوة الهناء والارتياح . وعرَّجنا على بعض الدُّروب والمنحدرات ؛ ودليلنا سعدٌ ينبئنا بأخبارها المحفوظة عن الأسلاف . وتلقَّتْنا مجموعةٌ من الأشجار ؛ وكأنَّها بشرٌ في ثيابٍ وقورةٍ وزاهيةٍ يرحِّبون بالضُّيوف والزُّوَّار .

وبين الأشجار ؛ رأينا فسحةً من الأرض ترفُّ عليها بعض الزُّهور مثل السَّوسن والأقحوان والبنفسج . قال سعد الغريب : « هذا المكان يُعرَف باسم عين الشَّباب » .

قلنا : « كيف يُعرَف باسم العين ولا ماء عنده . ياسعد أدرِكْنا ـــ ياسعد ـــ بالفهم وما يُعقَل » .

قال ؛ وقد اتَّسعت بسمته ؛ وكأن وجهه وصوته جميعًا يضيئان من الطَّرب : « هذه هي الحكاية التي تستحقُّ قرية العجوزَيْن أن تُزار من أجلها ، فهل تحبُّون سماعها ؟ » .

ـــ « ياسعد لا تظلمْنا بهذا السُّؤال . ألا تعلم أنَّك مُطالَبٌ بهذه القصَّة ؛ منذ



أن وطئت أقدامنا تراب هذه القرية ؟ أم أنت من غواة التَّدلُّل واصطناع الثِّقل[1]؟ ».

ــ « عتابكم مقبولٌ وعذري كذلك ! كان ــ ياما كان ــ في ماضي الزَّمان ؛ أو في زمانٍ لا تعيه الذَّاكرة ؛ عجوزان يعيشان في هذه القرية . الأَوَّل يُدعَى صَفَر باسم الشَّهر الذي يلي محرَّم ويسبق الرَّبيع ، والثَّاني يُدعَى مِدْحَت . الأَوَّل يُعرَف باسمه ولقبه : صَفَر السَّفَرْجَلي ، والثَّاني باسمه وكنيته مِدْحَت أبو مديح . وكان الأَوَّل هو الذي يقوم بالعمل كلِّه ؛ فيزرع الفول والقرع والباذنجان والبصل والطَّماطم في القيراط الذي يملكانه ، ثمَّ النعناع والفجل والجرجير ؛ كلُّ النَّبات ريَّان وكلُّ الزَّرع نضيرٌ ..

وصَفَر هو الذي يجمع الحطب ليشعَّ الدِّفء في أرجاء المنزل ؛ عندما تقسو على المسنَّيْن ليالي الشِّتاء . وهو الذي يذهب إلى السُّوق ليبيع هذا الحطب أو يبيع أحسنه ، ويحمله ــ عندئذٍ ــ على ظهر حمارهما العجوز نعل الرِّيش ، ويصطحب كلبهما الوفيَّ المدعوَّ خمس خمسات ؛ لأنَّه يلبس في عنقه عقدًا يضمُّ خمس خرزاتٍ زُرْقٍ .

أما العجوز الآخر مدحت مديح فكانت طباعه وأخلاقه عجبًا من العجب . كثير الغمغمة والتَّأوُّه والشَّكوَى من الزَّمن ؛ يستلقي على الفراش تارةً وعلى الحصير تاراتٍ أخرَى . ويجلس على المِصْطَبَة[2] ، ويتركها إلى الأريكة ؛ يتربَّع فوق هذه وتلك . لا يبرح البيت طوال النَّهار ، وكأنَّه هو الفصيح الذي صاغ للنَّاس في قديم الزَّمن مثلَهم العجيب القائل بهزءٍ وتبجُّحٍ وسخريةٍ : « الكَسَلُ عسلٌ ! » .

وكان يحلو للنَّاس أن يتهكَّموا على العجوز مدحت من وراء ظهره ؛ لا يواجهونه بشيءٍ من تهكُّمهم ؛ ليأمنوا شرَّ غضبه وتهوُّره ؛ فقد كان لا يطيق سماع كلمةٍ لا توافق هواه . وعلى العكس تمامًا ؛ كان النَّاس يثنون على صفر وعلى خصاله الكريمة وشمائله الحلوة ، ويشيدون بطيبة قلبه ومثابرته على العمل .

وكان السَّفرْجَلي يحبُّ مدحت ويوليه الرِّعاية ، ويهتمُّ بشؤونه ؛ فيطبخ له الطَّعام ، ويوقد له الفرن لينعم بالدِّفء ويأتيه بأحسن الفاكهة وبواكير المواسم من

---

(١) الثِّقَل : الرَّزانة والثَّبات (٢) المِصْطَبَة : بناء غير مرتفع ؛ يُجْلَس عليه

القثّاء مثلاً أو البلح أو قطوف العنب والتّين ؛ كلّما أمكن .

وكبر الكلّ : صفر ومدحت ، ونعل الريش وخمس خمسات . وأعوزهم الكفاف من الطّعام والدّفء في بعض الأيّام . ونظر صفر إلى أخيه مدحت فوجده يرتعش من البرد وتصطكُّ أسنانه . قال : « سأخرج وأجمع له الحطب من الغابة القريبة » .

وسرَى في غبش السَّحَر قبل الفجر ؛ وقد أخذ معه نعل الريش وخمس خمسات . وأنهكهم السَّير جميعًا . ودمعت عينا العجوز ؛ وهو يتأمّل السَّماء ذات النُّجوم ؛ وكأنَّها تتساقط أنداء فوق الزّرع والشَّجر . وفجأةً ؛ لمح على مسافةٍ منه — لا يدري هل هي قريبةٌ أم بعيدةٌ — صفحة ماءٍ رقراقٍ ، وحملق فيها وهو مشدودٌ إليها . قال : « هذه لا يمكن أن تكون سرابًا ، ولكنَّها لم تكن بالأمس موجودةً ، ولم أرَها في حياتي من قبل ؛ على كثرة ما جئتُ هذه الغابة ودخلتُها وخرجتُ منها في كلِّ اتِّجاهٍ ، وذرعتُها محتطبًا وقنّاصًا ، وقد أجمع بعض فراشاتها وأزهارها » .

وفيما هو يحدِّث نفسه ؛ كانت أقدامه قد أوصلته إلى الماء يتبعه صديقاه الوفيّان . فإذا بالعين — حقيقةً — خيطٌ من الماء ؛ بالقرب من بعض عيدان الزُّهور المتفتِّحة الزّاهية كالجدول أو الغدير السَّلسال . ومال الثّلاثة يشربون ؛ والفجر يطلع هادئًا ؛ يشدو بأصوات العصافير .

ورفع صفر السَّفَرْجلي قامته ووجهه من صفحة الماء فرأى عجبًا ، رأى نعل الريش يضرب الأرض بحافره النّاعم فينطلق منها مثل الشّرار ؛ وهو ينهق نهيقًا لا نشاز فيه . ثم يدور حول نفسه وكأنَّه يعلو ويطير ، وحوله — أيضاً — يدور عاليًا وطائرًا ؛ بخطىً أوقع من النغم الشَّجيِّ ؛ كلبٌ كأنَّه في عمر الجراء الصَّغيرة ، كان يعرفه منذ هنيهةٍ باسم خمس خمسات ، ولابد أن يكون بالفعل هو خمس خمسات ولكن شدَّما تغيَّر نعل الريش كذلك ، هما الآن شابّان أو طفلان . بل أنا أيضاً صَفَر السَّفَرْجَلي العجوز الهَرِم شابٌّ ؛ فهذه يدي لم تعُدْ عروقها خضراء بارزةً ، وهذا شعري أتحسَّسه فوق رأسي ؛ فأجده كثيفًا غزيرًا ملبَّدًا مثل صوف الغنم ، وهاتان عيناي تريان الأشياء رؤيةً صحيحةً ثابتةً ، وها هما قدماي تطيران وتعلوان مثل أقدام

هذا الحمار الذي أصبح جحشًا ، وهذا الكلب الذي عاد جروًا غريرًا .

وركب صَفَر السَّفَرْجَلي ظهر نعل الرِّيش فهو أسرع منه قطعًا ليصل إلى المنزل مبكِّرًا ، ويخبر أخاه مدحت بالخبر .

قال مدحت : « لا أريد أن يأتي أحدٌ منكم معي ؛ ليشرب نصيبي من العين ؛ فيزداد هو شبابًا ، ويحرمني من العودة إلى الشَّباب . اتركوني أذهب وحيدًا » .

وتركـوه ...

.. ومرَّت ساعةٌ ومرَّت ساعتان ؛ ومدحت مديح لم يعُدْ . وساور القلق أصحابنا ؛ فنهضوا جميعًا إلى الغابة ، ونظروا يمينًا وشمالًا ؛ فلم يجدوا عين الماء في مكانها ، ولم يجدوا ماءً بتاتًا . ولكن ها هي زهور الأقاحي والسَّوسن والياسمين والنَّرجس الغضِّ البهيج ، وها هو أمام أعينهم طفلٌ ؛ ولا كلّ الأطفال ؛ متورِّد الخدود ؛ ممتلئ الوجه مثل القمر . أيجوز أن يكون هذا مدحت أبو المديح العجوز السَّاخط المكتئب . أجل أجل ؛ إنه هو ! لقد شرب مدفوعًا بنهمه ولهفته كلَّ ماء العين ، ولم يترك منه قطرةً واحدةً !» .

قال سعد الغريب : « ولهذا السَّبب ؛ فإن أهل العجوزَيْن مازالوا حتى اليوم يقولون كلَّما رأَوْا شابًّا يتدفَّق بالنَّشاط والفتوَّة :

صفر السَّفَرْجَلي

الشَّابُّ المنجلي

ويقولون كلَّما رأَوْا طفلًا في المهد حلوًا وسيمًا ؛ مثل إعلانات الإذاعة المرئيَّة عن اللَّبن الحليب :

مدحت مديح ــ طفلٌ مليح ».

قلت : « يادليلنا في هذه الرِّحلة العجيبة ؛ هل تسمح لي أن أضيف إلى هذَيْن المثلَيْن قولي على الوزن والقافية :

سعد الغريب ــ طفلٌ أريب » .

قال : « ياعمِّي ؛ تسمح لي ــ إذن ــ أن أقول لك إن فؤاد الحدَّاد طفل الفؤاد ؛ شابُّ الفؤاد ؛ إلى الأبد ! » .








الصَّياد العَجوز

الصَّياد العجوز

هذه حكايةٌ خرافيَّةٌ غريبةٌ . إذا قال العاقل : « أنا لا أصدِّقها ! » ؛ فإن الأعقل منه يقول : « أنا لا أكذِّبها ! » . فإن كلَّ ما فيها من شطحات الخيال ، ومن وسائل التَّعبير الأسطوريِّ ؛ جميلٌ جمال الفنِّ والأدب الحيِّ ؛ مستلهَمٌ من الوجود الرَّائع الرَّحب العريض ؛ مستخلَصٌ من أعماق التَّجربة والخبرة ، حافلٌ بالتَّسلية ، ناطقٌ بالعبرة !

كان ــ ياما كان ــ في بلاد الشَّركس ؛ صيَّادٌ عجوزٌ يُدعَى الذَّكي عبدون ، والذَّكيُّ لقبٌ يسبق اسمه مثل الشَّاطر والبطل . وكان السَّبب في ذلك أنه اعتاد أن يقول لكلِّ مَنْ يريد سماعه : « هناك أربعة أشياء يحتاج إليها الصَّياد : ذراعٌ قويَّةٌ ، وقلبٌ شجاعٌ ، وعينٌ ثاقبةٌ ، وعقلٌ ذكيٌّ ! والذَّكاء يا أولادي هو الأهمُّ ! » .

وعاش حتى طبَّقت شهرته الآفاق ، وشملت مغامراته كلَّ أرجاء المنطقة والبلاد المجاورة ، وتسلَّق أعالي الجبال ؛ وكأنَّها أسهل عنده من صعود الدَّرجات الثلاث على عتبة البيت الذي وُلِد فيه ونشأ وكبر وتزوَّج وأنجب الأبناء والأحفاد .

وتبدأ حكايتنا وقد أصبح شعر رأسه ولحيته أبيض مثل الثَّلج في شتاء بلاده وقد جاءه عشرون من شباب القرية من هواة الصَّيد وقالوا له : « يا عمَّنا عبدون يا برج الذَّكاء ! إن لك من العلم والخبرة ما ليس لنا . هل تقبل أن تخرج معنا ؛ فنسيح معك في الجبال والغابات ، ونتعلَّم منكَ كلَّ ما يفيد ويُجدي في القنص والصَّيد والمطاردة ؟ » .

واصطحبهم الذَّكيُّ عبدون ، وعلَّمهم كيف يسيرون بخطواتٍ خافتةٍ ويتربَّصون ويرقبون ، وكيف يتنبَّأون بأحوال الجوِّ من روائح النَّبات والزَّرع ومن مسيل الماء في الجداول والأنهار . وعلَّمهم كيف يجتمع الثَّبات مع الخفَّة على ظهور الخيل . وعلَّمهم الرِّماية بكلِّ أنواع السِّهام الطَّويلة والقصيرة . وكان يختم كلامه ــ دائمًا أبدًا ــ بقوله

المعتاد : « والذَّكاء يا أولادي هو الأهمُّ ! » .

وذات يومٍ ؛ وقفوا أمام تلٍّ غريب الشَّكل والمنظر ؛ يتصاعد من قمَّته دخانٌ أسود كثيفٌ ، وعند قاعدته مغارةٌ على بابها صخورٌ ناتئة ، كأنها أنياب وحشٍ مهولٍ يتثاءب .

وقف الذَّكيُّ عبدون منذهلًا وقال : « لم أرَ في حياتي أغرب من هذا التَّلِّ ، ومن هذه المغارة ؛ لكأنَّها مسكونةٌ ! » ، واقترب من بابها ونادَى : « هل يوجد أحدٌ هنا ؟ » .

ــ « نعم ! نعم ! يا مرحبًا بالضُّيوف الأعزَّاء ! لقد كنَّا في انتظاركم ! تفضَّلوا » .

وقد نُطقَت هذه الكلمات الظَّريفة اللَّطيفة ؛ بشكلٍ أبعد ما يكون عن الظَّرف واللُّطف . وكان الذي قالها غولاً بشعًا فظيعًا ؛ تكلُّ العين إذا هي تابعت ارتفاعه في الهواء ، وامتداد جسمه من اليمين إلى اليسار ومن الخلف إلى الأمام . وخرج وراءه جمعٌ من الغيلان الأخرَى أبشع وأفظع ، وأحاطوا بالذَّكيِّ عبدون وأصحابه العشرين الذين كانوا يمتطون خيولهم .

وفي الحال ؛ أراد الشُّبَّان أن يستلُّوا خناجرهم ، ويدافعوا عن أرواحهم ، ولكن معلِّمهم العجوز أوقفهم بإشارة من يده ؛ وهو يقول : « دعوا خناجركم في أماكنها ؛ هم الآن أقوَى منَّا ، وسوف نتصرَّف بعد أن نعرف ماذا يريدون منَّا » .

وترجَّل الفرسان وتبعوا الغيلان إلى داخل مغارتهم . ورأَوْا على النَّار قِدْرًا كبيرةً ؛ وُضِعَتْ فيها أعدادٌ كثيرةٌ من البقر والماعز والغزلان والضَّأن وكلِّ أنواع اللُّحوم الأخرَى التي تؤكل من ذات الحافر وذات الجناح .

وأشار زعيم الغيلان إلى المائدة ، وأمر الصَّيادين بالجلوس معهم . وكانت شهيَّة الغولِ الواحد أقوَى من شهيَّة مِئَة نمرٍ لم يذوقوا الطَّعام منذ ثلاثة أسابيعَ بأيَّامها ولياليها .

وفي اليوم التَّالي ؛ قال الغول الشَّرس للذَّكيِّ عبدون : « لقد قدَّمنا لكم طعام العشاء أمس . وعليكم اليوم أن تطعمونا . وإذا خَلَت المائدة عند العشاء ؛ فإنَّنا

سنأخذكم ونضعكم في هذه القِدْر التي ترَوْنها على النَّار أمامكم » . قال الصيَّاد العجوز للشَّباب الذين أحاطوا به حائرين : « لابدَّ أن نضحِّي ــ اليوم ــ بخيولنا . وغدًا سيأتي الدَّور على الغيلان ليطعمونا . فأمامنا ــ إذن ــ يومان لنفكِّر ونجد طريقةً للتَّخلُّص منهم » .

وجاء ميعاد الوجبة ، وابتلعت الغيلان كلَّ الخيول في لمح البصر ، ثم خرجوا ليلعبوا في السَّهل المنبسط أمام المغارة . وكانت طريقتهم في اللَّعب سريعةً مثل طريقتهم في الأكل . كانوا يمسكون بالصُّخور الضَّخمة ويلقونها في الهواء مثل الكرة ، ويقلعون الأشجار بجذورها . فتعصف الرِّياح ، وترتجُّ الأرض بفعل هذه الألعاب الوحشيَّة .

وبعد عشاء اليوم الثَّالث ؛ قال الذَّكيُّ عبدون لأصحابه : « لا تفقدوا الأمل . إن لديهم القوَّة ، ولكنَّ لدينا الذَّكاء . وأنا مازلتُ متمسِّكًا بقولي : إن الذَّكاء يا أولادي هو الأهمُّ . وسوف أبتعد ــ الآن ــ وأعود غدًا . فإذا سألوا عنِّي قولوا لهم إنِّي خرجتُ للصَّيد » .

وجاء موعد العشاء ، وقال الغيلان : « أين عجوزكم ؟ » .

قالوا : « خرج للصَّيد ، وسوف يعود في الحال ! » .

وظلَّ الغيلان يسألون عنه بين الحين والحين ، ثم قالوا بلهجةٍ غاضبةٍ : « لقد سخر العجوز منكم ومنَّا . إنه رجلٌ ماكرٌ . لقد هرب ونجا . أمَّا أنتم ؛ فإننا سنبدأ بستَّةٍ منكم نضعهم في القِدْر فوق النَّار . اختاروا ستَّة منكم بسرعةٍ » .

ولكنْ في هذه اللَّحظة بالذَّات ؛ أطلَّ الذَّكيُّ عبدون وقال : « قِفْ ! لا يمسّ أحدٌ منكم شعرةً من جسم أصحابي ! » .

قال الغيلان : « ماذا تقول ؟ » .

اقترب الذَّكيُّ عبدون وتوسَّط المغارة ، ورفع صوته مثل الخطيب وقال : « لقد جئتُ إليكم أنا وأصحابي هؤلاء مُرسَلين من قِبَل سكَّان قرية الباذنجان ! وهي قريةٌ كبيرةٌ دخل أهلها في مناقشةٍ حامية الوطيس منذ ثلاثة أعوام . والنَّاس يتشاجرون ويتماسكون بالأيدي ، وقد سقط منهم عددٌ من الجرحَى وبعض القتلَى . وقد فقَد شيوخ





القرية وعقلاؤها الأمل في مصالحة أبناء قريتهم ، ولهذا عندما رأَوْني أنا وأصحابي قالوا لنا : اذهبوا في الحال إلى الغيلان ؛ فإنَّهم مشهورون بالحكمة ، ويستطيعون أن يفضُّوا هذه المناقشة ، ويقطعوا بمَنْ هو المخطئ فينا ومَن المُحِقُّ ! إننا في حاجةٍ إلى حكمة الغيلان ! » .

قال الغيلان ؛ وقد أحسُّوا بالزَّهو والخيلاء : « ما هو موضوع المناقشة ؟ » .

قال الذَّكيُّ عبدون : « كان ــ ياما كان ــ ثلاثة إخوة يملكون ثورًا ، ويعيشون في قريةٍ تقع بالقرب من بحيرةٍ كبيرةٍ . وفي هذه البحيرة سمكةٌ ضخمةٌ تسند ذيلها إلى شاطئ ورأسها إلى الشَّاطئ الآخر . وكان الثَّور يأتي في عصر كلِّ يومٍ بعد العمل ، وهو ظمآن ؛ فيشرب ماء البحيرة كلَّه تقريبًا ، وتتخبَّط السَّمكة المسكينة في القليل الباقي حتى تمتلئ البحيرة من جديدٍ .

وصبرت السَّمكة ــ على هذه الحال ــ لمدَّة سنةٍ بأكملها ، ثم ثارت في ذات يومٍ ، وقفزت من البحيرة ، وفتحت فمها مرَّةً واحدةً ، وابتلعت الثَّور والإخوة الثلاثة » .

صاح أحد الغيلان : « ماذا تقصُّ علينا أيُّها العجوز المُخرِّف ، كيف تبتلع السَّمكة ثورًا ؛ كان يشرب كلَّ ماء البحيرة التي تعيش فيها هذه السَّمكة نفسها ؟ » .

قال الذَّكيُّ عبدون : « اسمعوا الحكاية حتى النِّهاية ولا تقاطعوني ! لقد امتلأت معدة السَّمكة ؛ فتعبت وراحت تتخبَّط فوق الشَّاطئ . وفجأةً ؛ هبَّت على المنطقة كلِّها عاصفةٌ هوجاءُ ، وتلبَّدت السَّماء بالغيوم . وتهيَّأ للنَّاس أنهم يرَوْن سحابتَيْن هائلتَيْن تسدَّان الأفق . واهتزَّت السَّحابتان ؛ فأدرك النَّاس أنَّهما جناحان . وانقضَّ النَّسر الذي يملك هذين الجناحَيْن على السَّمكة ، وابتلعها هي والثَّور والإخوة الثَّلاثة . ولم يبقَ من كلِّ هذا إلا عظمةُ كتِف الثَّور التي تُدعَى اللَّوْحَة . وحملها النَّسر بين مخالبه وارتفع في الجوِّ ثانية .

وأراد أن يستريحَ ؛ فلمح جبلًا له قمَّتان رفيعتان ؛ فهبط على إحداهما . وعندئذٍ تحرَّك الجبل ؛ فأدرك النَّسر أنه لا يقف على قمَّة جبلٍ ، ولكنْ على قرن تَيْسٍ

عملاقٍ . ورأى راعيًا مختبئًا في عُثْنون (١) التَّيس ؛ قد احتمَى به من العاصفة . وأحسَّ النَّسر بالخوف وطار ؛ فوقعت منه اللَّوحة . وشعر الرَّاعي ؛ وكأن ذرةً من التُّراب قد دخلت في عينه . وحكَّ عينه مرارًا ، ولكنه لم يستطِعْ أن يُخرِج اللَّوحة منها .

وفي المساء ؛ قال لأخته : « إن في عيني شيئًا يضايقني ، وأريدكِ أن تنظري وتعرفي ما هو هذا الشَّيء » . وفحصت الأخت عين أخيها ؛ فلم تعثر على شيءٍ ، وقالتْ : « يجب أن نستدعي الجيران ليساعدونا على اكتشاف الشَّيء الذي يضايقكَ » . وجاء الجيران ؛ وكانوا حوالي ثلاثين من الفلَّاحين الأشدَّاء وتسلَّلوا تحت جفن الرَّاعي ، وهم يحملون مشاعلهم ، وأخذوا يبحثون هنا وهناك — ساعةً بعد ساعةٍ — حتى وجدوا أخيرًا اللَّوحة التي هي عظمة كتِف الثَّور . فربطوها بحبلٍ من الصُّلب يجرُّه ثلاثون زوجًا من الخيل ، وتمكَّنوا بعدَ جهدٍ من انتزاع اللَّوحة . فتناولها الرَّاعي بيده ، ونظر إليها بدهشةٍ ، ثم رماها في النَّهر ، فجرفها التَّيار ، وألقَى بها على بقعةٍ رمليَّةٍ كبيرةٍ ؛ حيث تغطَّت هناك — شيئًا فشيئًا — بالتُّراب والطَّمي والحجارة والحصَى . ونبت العشب عليها ، وأصبحت سهلًا أخضرَ جميلًا . ومرَّتْ أعوامٌ ، وأُنشِئَتْ هناك قريةٌ بشوارعها وبيوتها وبساتينها وحقولها . وعاش فيها النَّاس سعداء هانئين .

وأصبحوا — ذات يومٍ — فإذا بهم يرَوْن بأعينهم جميعًا رابع المستحيلات . لقد بدا لهم أن الشَّمس قد أشرقت من جهةٍ أخرَى غير الجهة المعتادة . وأرادوا أن يعرفوا سبب هذه الظَّاهرة الخارقة التي لا تُصدَّق ، فأرسلوا جماعةً من الفرسان المسلَّحين إلى جهة الشَّرق ؛ حيث اعتادت الشَّمس أن تطلع - كلَّ يومٍ — منذ آلاف السنين . وسار الفرسان اثنَيْ عشر يومًا واثنتَيْ عشرة ليلةً دون أن يصادفوا أيَّ شيءٍ غريب في طريقهم . ولكنْ في اليوم الثَّالث عشر كانت هناك مفاجأةٌ ؛ انعقدت أمامها ألسنتهم من الذُّهول .

لقد رأَوْا على حافَة السَّهل ثعلبًا عملاقًا يعضُّ بأسنانه في شبه جبلٍ صغيرٍ . إن

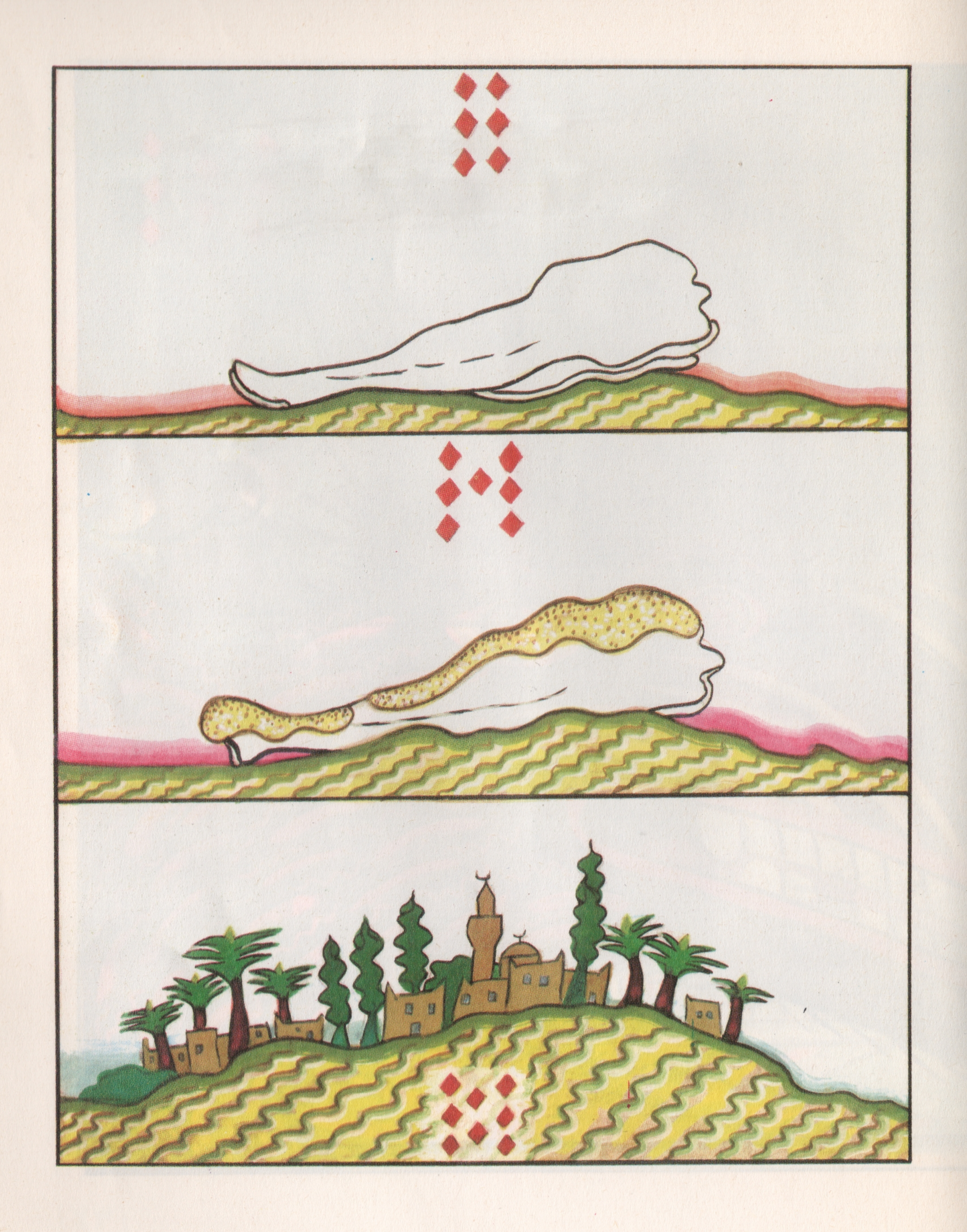
---

(١) العُثْنون : شعيرات طوال عند مذبح البعير والتَّيْس













الثَّعلب المشهور بمكره ودهائه ؛ قد اكتشف وجود اللَّوحة المدفونة تحت الأرض . وأخذ ينبش فزحزحها من مكانها ، وعندئذٍ أُديرت القرية المبنيَّة فوقها إلى النَّاحية المقابلة ؛ ممَّا حمل القرويين على الظَّنِّ بأن الشَّمس لم تعُدْ تشرق من الشَّرق كالمعتاد ! وقذفوا الثَّعلب بمئاتٍ من السِّهام حتى سقط قتيلًا .

وسلخوا نصف فروته ، وأرادوا أن يقلبوه على الجانب الآخر ليسلخوا النِّصف الباقي ، ولكنهم لم يتمكَّنوا . واكتفوا بنصف الفروة ، وعادوا إلى القرية التي استقبلتهم استقبال الأبطال المنتصرين وصنعوا بالفرو الذي جاءوا به قَلانِس[1] وطواقي لكلِّ رجال القرية باستثناء طفلٍ واحدٍ حديث الولادة .

وغضبت أمُّ الطِّفل وأخذت طفلها في الحال ، وذهبت إلى المكان الذي يرقد فيه الثَّعلب وقلبته بيدٍ واحدةٍ ، واستولت على باقي الفروة وعادت إلى بيتها . وأرادت أن تصنع من الفرو الذي حملته معها طاقيَّةً لابنها ، ولكنها بعد عدَّة تجارب من القياس ؛ وجدت أن نصف فروة الثَّعلب لا يكفي لصنع الطَّاقيَّة المطلوبة ؛ لأن رأس ابنها أكبر من ذلك بكثيرٍ ! » .

وأدار الذَّكيُّ عبدون عينَيْه في جميع الغيلان المنصتين وقال : « انتهتْ حكايتنا . ولكنَّ المناقشات التي تدور حولها منذ ثلاثة أعوامٍ لم تنْتَهِ . إن أهل القرية يريدون أن يعرفوا مَن الأقوَى ومَن الأضخم ؟ بعضهم يقول إنها السَّمكة لأنها ابتلعت الثَّور الكبير ، وبعضهم يقول إنه النَّسر أو التَّيس أو الرَّاعي ! وهم يتناقشون باللَّيل وبالنَّهار لا يتوصَّلون إلى اتِّفاقٍ . ويريدون أن تحكموا بينهم ، وتدلُّوهم بعقلكم الرَّاجح وفطنتكم الواضحة على الأقوَى والأضخم ! » .

قال غولٌ من الغيلان : « إنه الثَّور بالطَّبع ؛ فعلى اللَّوحة التي هي عظمة كتفه ؛ نشأت قريةٌ كبيرةٌ وُلِد فيها طفلٌ عملاقٌ ؛ لم يَكْفِ نصف فروة الثَّعلب ليصنع طاقيَّةً لرأسه » .

---

(١) قلانس : جمع قَلَنْسُوة ؛ وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال

قال غولٌ آخر : « كلّا ! إنه التَّيس لأن النَّسر الذي ابتلع السَّمكة بالثور والإخوة الثَّلاثة قد وقف على قرنه » .

قال غولٌ ثالثٌ : « هذا هراءٌ وسخفٌ ! إن الرَّاعي هو الأضخم وهو الأقوى ؛ لأن اللَّوحة الطَّويلة العريضة بدَتْ وكأنها ذرةٌ من التُّراب في عينه ! » .

ــ « ليس الرَّاعي بل هو الطِّفل الصَّغير » .

ــ « بل هي أمُّ الطِّفل » .

ــ « بل الرَّاعي يا حمار ! » .

ــ « بل التَّيس يا تيس ! » .

وتعالَتْ صيحات الغيلان وهم يتشاتمون ؛ وعبدون العجوز الذَّكيُّ يضحك في سرِّه ؛ لأن ما توقَّعه قد حدث بالفعل .

ومن الشَّتائم انتقل الغيلان إلى تبادل الصَّفعات واللَّكمات . وارتجَّت الأرض ، وتصاعد الغبار مثل عامودٍ من الدُّخان الأسود إلى السَّماء حتى حجب الشَّمس . واقتتل الغيلان حتى صرعوا بعضهم البعض ، ولم يبقَ واحدٌ منهم على قيد الحياة .

ويُقال إن الغيلان ــ منذ ذلك الوقت ــ قد اختفَوا من بلاد الشَّركس ، ومن وجه الأرض .

وعاد الذَّكيُّ عبدون وأصحابه العشرون إلى قريتهم . ولا حاجة بنا إلى أن نسأل أحدًا : مَن الأضخم ومَن الأقوى ؟ .



فؤاد حداد

★ ولد في ٣٠ أكتوبر ١٩٢٧ بحي الظاهر بالقاهرة .

★ والداه من أصل لبناني ، استقرا في مصر . ثقافتهما فرنسية . وكان الأب أستاذا بكلية التجارة .

★ تعلم بمدارس الفرير والليسيه ، ثم التحق بكلية التجارة . ولكنه لم يكمل دراسته بها .

★ تنقل بين أحياء القاهرة الفقيرة ، وعانى حياة صعبة ، وسجن بسبب نشاطه الوطني وموقفه السياسي .

★ كتب الشعر بالعامية المصرية التي عشقها ، وتميزت على يديه قصيدة الشعر العامي بصورها ، ولغتها ، وبنيتها . وكتب كذلك بالفصحى التي كان يعرفها حق المعرفة .

★ جل شعره وطني ذو نزوع قومي ، تحتل قضية فلسطين فيه مكانة خاصة . وله عدد كبير من الدواوين ، بعضها لم ينشر بعد .

★ حاز الأطفال والفتيان قدراً كبيراً من اهتمامه ؛ فكتب لهم القصيدة والقصة ، وترجم لهم عن الفرنسية .

★ توفي فى أول نوفمبر ١٩٨٥ .

قصص الكتاب


سلسلة الأفق الجديد
دار الفتى العربي للنشر والتوزيع
تضمُّ مجموعة من أجمل القصص الخيالية
المُثيرة . بعد قراءة هذه السلسلة ،
نجد أننا قد أحببنا
أبطالها ، رغم معرفتنا
أنهم ليسوا أبطالا من الواقع !
555
صدر من هذه السلسلة : ◆ **القنديل الصغير** / غسان كنفاني ◆ **حارسة النبع** / زين العابدين الحسيني ◆ **السمكة الصغيرة السوداء** / صمد بهرنجي ◆ **البلح الأحمر** / محجوب عمر ◆ **نسيم الجناح** / بول ايلوار ◆ **أوبرا القمر** / جاك بريفير ◆ **ليمونة المحاياة** / فؤاد حداد ◆ **يوم العلم** / فرانسيس كوبلاند ◆ **المسدس** / نجوجي واثيونجو ◆ **من القلب للقلب** / فؤاد حداد .